صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين ففتح الله على رسوله مكة وأرغم آنافهم وأذل رقابهم ، ثم قال تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه) أى لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله فقال إن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء . ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه فالأول مفتر والثانى مكذب ولهذا قال تعالى (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) ثم قال تعالى (والذين جاهدوا فينا) يعنى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين (لنهدينهم سبلنا) أى لنبصرنهم سبلنا أى طرقنا فى الدنيا والآخرة . قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن أبى الحوارى أخبرنا عباس الهمدانى أبو أحمد من أهل عكا فى قول الله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) قال الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون قال أحمد بن أبى الحوارى فحدثت به أبا سليمان يعنى الدارانى فأعجبه وقال ليس ينبغى لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه فى الأثر ، فاذا سمعه فى الأثر عمل به وحمد الله حتى وافق ما فى قلبه . وقوله (وإن الله لمع المحسنين) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عيسى بن جعفر قاضى الرى حدثنا أبو جعفر الرازى عن المغيرة عن الشعبى قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك والله أعلم . آخر تفسير سورة العنكبوت ولله الحمد والمنة .

﴿ تفسير سورة الروم وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾

نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصى بلاد الروم فاضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية وحاصره فيها مدة طويلة ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتى . وقال الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا أبو إسحاق عن سفيان الثورى عن حبيب بن أبى عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض) قال غلبت وغلبت ، قال كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب فذكر ذلك لأبى بكر فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما إنهم سيغلبون » فذكره أبو بكر لهم فقالوا اجعل بيننا وبينك أجلا فان ظهرنا كان لنا كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ألا جعلتها إلى دون ـ أراه قال العشر ـ » قال سعيد بن جبير البضع ما دون العشر ثم ظهرت الروم بعد قال فذلك قوله (الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ـ إلى قوله ـ وهو العزيز الرحيم) هكذا رواه الترمذى والنسائى جميعا عن الحسين بن حريث عن معاوية بن عمرو عن أبى إسحاق الفزارى عن سفيان الثورى به وقال الترمذى حديث حسن غريب إنما نعرفه من حديث سفيان عن حبيب . ورواه ابن أبى حاتم عن محمد بن إسحاق الصاغانى عن معاوية بن عمرو به . ورواه ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا محمد بن سعيد أو سعيد الثعلبى الذى يقال

له أبو سعد من أهل طرسوس حدثنا أبو إسحاق الفزارى فذكره ، وعندهم قال سفيان فبلغنى أنهم غلبوا بعد يوم بدر ﴿ حديث آخر ﴾ قال سليمان بن مهران الأعمش عن مسلم عن مسروق قال : قال عبد الله : خمس قد مضين : الدخان واللزام والبطشة ، والقمر . والروم . أخرجاه . وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا المحاربى عن داود بن أبى هند عن عامر — هو الشعبى — عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : كانت فارس ظاهرة على الروم وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم . وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم فلما نزلت (الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) قالوا يا أبابكر إن صاحبك يقول إن الروم تظهر على فارس فى بضع سنين قال : صدق قالوا هل لك أن نقامرك فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين فمضت السبع ولم يكن شىء ففرح المشركون بذلك فشق على المسلمين فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال « ما بضع سنين عندكم ؟ » قالوا دون العشر قال « اذهب فزايدهم وازدد سنتين فى الأجل » قال فمامضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ففرح المؤمنون بذلك وأنزل الله تعالى (الم * غلبت الروم — إلى قوله تعالى — وعد الله لا يخلف الله وعده) ﴿ حديث آخر ﴾ قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا أحمد بن عمر الوكيعى حدثنا مؤمن عن إسرائيل عن أبى إسحاق عن البراء قال لما نزلت (الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون) قال المشركون لأبى بكر ألا ترى إلى ما يقوم صاحبك يزعم أن الروم تغلب فارس قال صدق صاحبى قالوا هل لك أن نخاطرك فجعل بينه وبينهم أجلا فحل الأجل قبل أن تغلب الروم فارس فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم وساءه ذلك وكرهه وقال لأبى بكر « مادعاك إلى هذا ؟ » قال تصديقاً لله ولرسوله . قال « تعرض لهم وأعظم لهم الخطر واجعله إلى بضع سنين » فأتاهم أبو بكر فقال هل لكم فى العود فإن العود أحمد ؟ قالوا نعم فلم تمض تلك السنين حتى غلبت الروم فارس وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا الرومية ، فجاء أبو بكر إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : هذا السحت ، قال « تصدق به » ﴿ حديث آخر ﴾ قال أبو عيسى الترمذى حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا إسماعيل بن أبى أويس أخبرنى ابن أبى الزناد عن عروة بن الزبير عن نيار بن مكرم الأسلمى قال : لما نزلت (الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين) فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب وفى ذلك قوله تعالى (يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح فى نواحى مكة (الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين) فقال ناس من قريش لأبى بكر فذاك بيننا وبينكم زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال بلى وذلك قبل تحريم الرهان ، فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان وقالوا لأبى بكر كم نجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين فسم بيننا وبينك وسطاً ننتهى إليه قال فسموا بينهم ست سنين قال فمضت ست السنين قبل أن يظهروا فأخذ المشركون رهن أبى بكر فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس قال فعاب المسلمون على أبى بكر تسميته ست سنين قال لأن الله يقول فى بضع سنين قال فأسلم عند ذلك ناس كثير . هكذا ساقه الترمذى ثم قال هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن ابن أبى الزناد ، وقد روى نحو هذا مرسلا عن جماعة من التابعين مثل عكرمة والشعبى ومجاهد وقتادة والسدى والزهرى وغيرهم ومن أغرب هذه السياقات ما رواه الإمام سنيد بن داود فى تفسيره حيث قال حدثنى حجاج عن أبى بكر بن عبد الله عن عكرمة قال : كان فى فارس امرأة لا تلد إلا الملوك الأبطال فدعاها كسرى فقال إنى أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً وأستعمل عليه رجلا من بنيك فأشيرى على أيهم أستعمل ؟ ! فقالت هذا فلان وهو أروغ من ثعلب وأحذر من صقر وهذا فرخان وهو أنفذ من سنان ، وهذا شهربراز وهو أحلم من كذا تعنى أولادها الثلاثة فاستعمل أيهم شئت ، قال فانى استعملت الحليم فاستعمل شهر براز فسار إلى الروم بأهل فارس فظهر عليهم فقتلهم وخرب مدائنهم وقطع

زيتونهم قال أبو بكر بن عبد الله فحدثت بهذا الحديث عطاء الخراسانى فقال أما رأيت بلاد الشام ؟ قلت: لا ، قال أما إنك لو رأيتها لرأيت المدائن التى خربت والزيتون الذى قطع فأتيت الشام بعد ذلك فرأيته . قال عطاء الخراسانى حدثنى يحيى بن يعمر أن قيصر بعث رجلا يدعى قطمة بجيش من الروم وبعث كسرى شهر يراز فالتقيا بين أذرعات وبصرى وهى أدنى الشام إليكم فلقيت فارس الروم فغلبتهم فارس ففرحت بذلك كفار قريش وكرهه المسلمون . قال عكرمة : ولقى المشركون أصحاب النبى ﷺ وقالوا إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله تعالى (الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض — إلى قوله — ينصر من يشاء) فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال : أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا فلا تفرحوا ولا يقرن الله أعينكم فوالله ليظهرن الله الروم على فارس ، أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم فقام إليه أبى بن خلف فقال كذبت يا أبا فضيل ، فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله فقال أناحبك عشر قلائص منى وعشر قلائص منك فان ظهرت الروم على فارس غرمت وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين ، ثم جاء أبو بكر إلى النبى ﷺ فأخبره فقال «ما هكذا ذكرت إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده فى الخطر وماده فى الأجل » فخرج أبو بكر فلقى أبيا فقال لعلك ندمت ؟ فقال لا ، تعال أزايدك فى الخطر وأمادك فى الأجل فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين قال قد فعلت فظهرت الروم على فارس قبل ذلك ففلبهم المسلمون . قال عكرمة لما أن ظهرت فارس على الروم جلس فرخان يشرب وهو أخو شهر يراز فقال لأصحابه لقد رأيت كأنى جالس على سرير كسرى فبلغت كسرى فكتب كسرى إلى شهر يراز إذا أتاك كتابى فابعث إلى برأس فرخان فكتب إليه شهر يراز أيها الملك إنك لن تجد مثل فرخان له نكاية وصوت فى العدو فلا تفعل ، فكتب إليه إن فى رجال فارس خلفاً منه فعجل إلى برأسه . فراجعه فغضب كسرى فلم يجبه وبعث بريدا إلى أهل فارس إنى قد نزعت عنكم شهر يراز واستعملت عليكم فرخان ثم رفع إلى البريد صحيفة لطيفة صغيرة فقال إذا ولى فرخان الملك وانقاد له أخوه فأعطه هذه ، فلما قرأ شهر يراز الكتاب قال سمعا وطاعة ونزل عن سريره وجلس عليه فرخان ورفع إليه الصحيفة اللطيفة فلما قرأها قال ائتونى بشهر يراز وقدمه ليضرب عنقه فقال شهر يراز لا تعجل حتى أكتب وصيتى ، قال نعم فدعا بالسفط فأعطاه الصحائف فقال كل هذا راجعت فيك كسرى وأنت أردت أن تقتلنى بكتاب واحد فرد الملك إلى أخيه شهر يراز وكتب شهر يراز إلى قيصر ملك الروم إن لى إليك حاجة لا تحملها البرد ولا تحملها الصحف فالقنى ولا تلقنى إلا فى خمسين روميا فإنى لا ألقاك إلا فى خمسين فارسيا . فأقبل قيصر فى خمسمائة ألف رومى وجعل يضع العيون بين يديه فى الطريق وخاف أن يكون قد مكر به حتى أتاه عيونه بأنه ليس معه إلا خمسون رجلا ، ثم بسط لهما والتقيا فى قبة ديباج ضربت لهما مع كل واحد منهما سكين فدعيا ترجمانا بينهما فقال شهر يراز إن الذين خربوا مدائنك أنا وأخى بكيدنا وشجاعتنا وإن كسرى حسدنا وأراد أن أقتل أخى فأبيت ثم أمر أخى أن يقتلنى فقد خلعنا جميعا فنحن نقاتله معك . قال قد أصبتما ثم أشار أحدهما إلى صاحبه أن السر بين اثنين فإذا جاوز اثنين فشا قال أجل فقتلا الترجمان جميعا بسكينيهما فأهلك الله كسرى وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبية ففرح والمسلمون معه . فهذا سياق غريب وبناء عجيب . ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمات فقوله تعالى (الم * غلبت الروم) قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور فى أول سورة البقرة ، وأما الروم فهم من سلالة العيص بن اسحق بن إبراهيم وهم أبناء عم بنى إسرائيل ويقال لهم بنو الأصفر وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث بن نوح أبناء عم الترك وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ويقال لها المتحيرة ويصلون إلى القطب الشمالى وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها وفيه محاريب إلى جهة الشمال فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلثمائة سنة وكان من ملك منهم الشام مع الجزيرة يقال له قيصر فكان أول من دخل فى دين النصارى من ملوك الروم قسطنطين بن قسطس وأمه مريم الهيلانية الغندقانية من أرض حران كانت قد

تنصرت قبله فدعته إلى دينها وكان قبل ذلك فيلسوفا فتابعها يقال تقية واجتمعت به النصارى وتناظروا فى زمانه مع عبد الله بن أريوس واختلفوا اختلافا كثيرا منتشرا متشتتا لا ينضبط إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً فوضعوا لقسطنطين العقيدة وهى التى يسمونها الأمانة الكبيرة وإنما هى الخيانة الحقيرة ، ووضعوا له القوانين يعنون كتب الأحكام من تحريم وتحليل وغير ذلك مما يحتاجون اليه ، وغيروا دين المسيح عليه السلام ، وزادوا فيه ونقصوا منه فصلوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير ، واتخذوا أعيادا أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس وغير ذلك من البواغيث والشعابين ، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم ثم البتاركة ثم المطارنة ثم الأساقفة والقساقسة ثم الشمامسة ، وابتدعوا الرهبانية ، وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد وأسس المدينة المنسوبة اليه وهى القسطنطينية يقال إنه بنى فى أيامه اثنى عشر ألف كنيسة ، وبنى بيت لحم بثلاث محاريب وبنت أمه القمامة ، وهؤلاء هم الملكية يعنون الذين هم على دين الملك ، ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الأسكاف ثم النسطورية أصحاب نسطورا وهم فرق وطوائف كثيرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة » والغرض أنهم استمروا على النصرانية كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم هرقل ، وكان من عقلاء الرجال ومن أحزم الملوك وأدهاهم وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا فتملك عليهم فى رياسة عظيمة وأبهة كثيرة فناوأه كسرى ملك الفرس وملك البلاد كالعراق وخراسان والرى وجميع بلاد العجم وهو سابور ذوالاكتاف ، وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر وله رياسة العجم وحماقة الفرس وكانوا مجوسا يعبدون النار ، فتقدم عن عكرمة أنه قال بعث اليه نوابه وجيشه فقاتلوه ، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه فى بلاده فقهره وكسره وقصره حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية ، فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه وكانت النصارى تعظمه تعظيما زائدا ، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ولا أمكنه ذلك لحصانتها لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك ، فلما طال الأمر دبر قيصر مكيدة ورأى فى نفسه خديعة فطلب من كسرى أن يقلع من بلاده على مال يصالحه عليه ويشترط عليه ماشاء فأجابه إلى ذلك وطلب منه أموالا عظيمة لايقدر عليها أحد من ملوك الدنيا من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة ، فطاوعه قيصر وأوهمه أن عنده جميع ماطلب واستقل عقله لما طلب منه ماطلب ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عشره ، وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته ليسعى فى تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه فأطلق سراحه فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية جمع أهل ملته وقال : إنى خارج فى أمر قد أبرمته فى جند قد عينته من جيشى فان رجعت اليكم قبل الحول فأنا ملككم وإن لم أرجع اليكم قبلها فأنتم بالخيار إن شئتم استمررتم على بيعتى وإن شئتم وليتم عليكم غيرى فأجابوه بأنك ملكنا مادمت حيا ولو غبت عشرة أعوام ، فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة فى جيش متوسط هذا وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع فركب قيصر من فوره وسار مسرعا حتى انتهى إلى بلاد فارس فعاث فى بلادهم قتلا لرجالها ومن بها من المقاتلة أولا فأولا ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن وهى كرسى مملكة كسرى فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله وأسر نساءه وحريمه وحلق رأس ولده وركبه على حمار وبعث معه من الأساورة من قومه فى غاية الهوان والذلة وكتب إلى كسرى يقول هذا ماطلبت فخذه فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم مالا يحصيه إلا الله تعالى واشتد حنقه على البلد فجد فى حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك ، فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون التى لاسبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها ، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق اليها وهو أنه أرصد جنده وحواصله التى معه عند فم المخاضة وركب فى بعض الجيش وأمر بأحمال من التبن والبعر والروث فحملت معه وسار الى قريب من يوم فى الماء مصعدا ثم أمر بالقاء تلك الأحمال فى النهر فلما مرت بكسرى وجنده ظن أنهم قد خاضوا من هنالك فركبوا فى طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض والخوض فخاضوا وأسرعوا السير ففاتوا كسرى وجنوده ودخلوا القسطنطينية فكان ذلك يوماً مشهوداً

عند النصارى وبقى كسرى وجيوشه حائرين لايدرون ماذا يصنعون لم يحصلوا على بلاد قيصر وبلادهم قد خربتها الروم وأخذوا حواصلهم وسبوا ذراريهم ونساءهم فكان هذا من غلب الروم لفارس وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب فارس للروم ، وكانت الوقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى على ماذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما وهى طرف بلاد الشام مما يلى بلاد الحجاز ، وقال مجاهد كان ذلك فى الجزيرة وهى أقرب بلاد الروم من فارس فالله أعلم . ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين وهى تسع فان البضع فى كلام العرب مابين الثلاث إلى التسع : وكذلك جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وغيرهما من حديث عبدالله بن عبدالرحمن الجمحى عن الزهرى عن عبيد الله بن عبدالله عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر فى مناحبة (الم * غلبت الروم) الآية « ألا احتطت يا أبا بكر فان البضع مابين ثلاث إلى تسع ؟ » ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . وروى ابن جرير عن عبدالله بن عمرو أنه قال ذلك والله أعلم . وقوله تعالى (لله الأمر من قبل ومن بعد) أى من قبل ذلك ومن بعده فبنى على الضم لما قطع المضاف وهو قوله قبل عن الاضافة ونويت (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) أى للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى ، وهم المجوس وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر فى قول طائفة كثيرة من العلماء كابن عباس والثورى والسدى وغيرهم وقد ورد فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم والبزار من حديث الأعمش عن عطية عن أبى سعيد قال : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به وأنزل الله (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) وقال الآخرون بل كان نصر الروم على فارس عام الحديبية . قاله عكرمة والزهرى وقتادة وغيرواحد ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكسرى ليمشين من حمص إلى إيليا وهو بيت المقدس شكراً لله تعالى ففعل ، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ الذى بعثه مع دحية بن خليفة فأعطاه دحية لعظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر . فلما وصل اليه سأل من بالشام من عرب الحجاز ، فأحضر له أبو سفيان صخر بن حرب الأموى فى جماعة من كبار قريش وكانوا بغزة فجىء بهم اليه فجلسوا بين يديه . فقال أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان أنا فقال لأصحابه وأجلسهم خلفه إنى سائل هذا عن هذا الرجل فان كذب فكذبوه ، فقال أبو سفيان فوالله لولا أن يأثروا على الكذب لكذبت فسأله هرقل عن نسبه وصفته فكان فيما سأله أن قال : فهل يغدر ؟ قال قلت لا ونحن منه فى مدة لاندرى ماهو صانع فيها يعنى بذلك الهدنة التى كانت قد وقعت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكفار قريش عام الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين فاستدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام الحديبية لأن قيصر إنما وفى بنذره بعد الحديبية والله أعلم . ولأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشعبت فما تمكن من وفاء نذره حتى أصلح ماينبغى له إصلاحه وتفقد بلاده ثم بعد أربع سنين من نصره وفى بنذره والله أعلم : والأمر فى هذا سهل قريب إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين ، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك لأن الروم أهل كتاب فى الجملة فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس كما قال تعالى (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى — إلى قوله — ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) . وقال تعالى ههنا (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنى أسيد الكلابى قال سمعت العلاء بن الزبير الكلابى يحدث عن أبيه قال رأيت غلبة فارس الروم ثم رأيت غلبة الروم فارس ، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم كل ذلك فى خمس عشرة سنة

وقوله تعالى (وهو العزيز) أى فى انتصاره وانتقامه من أعدائه (الرحيم) بعباده المؤمنين وقوله تعالى (وعد الله لايخلف الله وعده) أى هذا الذى أخبرناك به ياحمد من أنا سننصر الروم على فارس وعد من الله حق وخبر صدق لا يخلف ولا بد من كونه ووقوعه لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق ويجعل لها

العاقبة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى بحكم الله فى كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل . وقوله تعالى (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) أى أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها فهم حذاق أذكياء فى تحصيلها ووجوه مكاسبها وهم غافلون فى أمور الدين وما ينفعهم فى الدار الآخرة كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة ، قال الحسن البصرى والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يصلى. وقال ابن عباس فى قوله تعالى (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) يعنى الكفار يعرفون عمران الدنيا وهم فى أمر الدين جهال

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

يقول تعالى منبهاً على التفكر فى مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها وأنه لا إله غيره ولا رب سواه فقال (أو لم يتفكروا فى أنفسهم) يعنى به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوى والسفلى وما بينهما من المخلوقات المتنوعة والأجناس المختلفة فيعلموا أنها ما خلقت سدى ولا باطلا بل بالحق وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة ولهذا قال تعالى (وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات من إهلاك من كفر بهم ونجاة من صدقهم فقال تعالى (أو لم يسيروا فى الأرض) أى بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين ولهذا قال (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة) أى كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم قوة أيها المبعوث إليهم محمد ﷺ وأكثر أموالا وأولادا ، وما أوتيتم معشار ما أوتوا ومكنوا فى الدنيا تمكينا لم تبلغوا إليه وعمروا فيها أعماراً طوالا فعمروها أكثر منكم . واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ومع هذا فلما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا أخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ، ولا حالت أموالهم وأولادهم بينهم وبين بأس الله ، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله واستهزءوا بها وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم ولهذا قال تعالى (ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات وكانوا بها يستهزئون) كما قال تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) وقال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقال تعالى (فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) وعلى هذا تكون السوأى منصوبة مفعولا لأساءوا وقيل بل المعنى فى ذلك (ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى) أى كانت السوأى عاقبتهم لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون . فعلى هذا تكون السوأى منصوبة خبر كان ، هذا توجيه ابن جرير ونقله عن ابن عباس وقتادة ، ورواه ابن أبى حاتم عنهما عن الضحاك بن مزاحم وهو الظاهر والله أعلم لقوله (وكانوا بها يستهزئون)

﴿ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن

شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ * وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾

يقول تعالى (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) أى كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته (ثم إليه ترجعون) أى يوم القيامه فيجازى كل عامل بعمله . ثم قال (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) قال ابن عباس : ييأس المجرمون ، وقال مجاهد يفتضح المجرمون وفى رواية يكتئب المجرمون (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) أى ما شفعت فيهم الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله تعالى وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم . ثم قال تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) قال قتادة هى والله الفرقة التى لا اجتماع بعدها ، يعنى أنه إذا رفع هذا إلى عليين وخفض هذا إلى أسفل سافلين فذلك آخر العهد بينهما ولهذا قال تعالى (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) قال مجاهد وقتادة : ينعمون وقال يحيى بن أبى كثير يعنى سماع الغناء . والحبرة أعم من هذا كله قال العجاج :

فالحمد لله الذى أعطى الحبر موالى الحق إن المولى شكر

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده فى هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه عند المساء وهو إقبال الليل بظلامه وعند الصباح وهو إسفار النهار بضيائه . ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح وهو التحميد فقال تعالى (وله الحمد فى السموات والأرض) أى هو المحمود على ما خلق فى السموات والأرض ثم قال تعالى (وعشيا وحين تظهرون) فالعشاء هو شدة الظلام والاظهار قوة الضياء ، فسبحان خالق هذا وهذا فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا كما قال تعالى (والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها) وقال تعالى (والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى) وقال تعالى (والضحى والليل إذا سجى) والآيات فى هذا كثيرة وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا زياد بن فايد عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال « ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى ! لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » . وقال الطبرانى حدثنا مطلب بن شعيب الأزدى حدثنا عبد الله بن صالح حدثنى الليث بن سعد عن سعيد بن بشير عن محمد بن عبد الرحمن بن البيلمانى عن أبيه عن عبد الله بن عباس عن رسول الله ﷺ قال « من قال حين يصبح سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون الآية بكمالها أدرك ما فاته فى يومه ومن قالها حين يمسى أدرك ما فاته فى ليلته » إسناد جيد(١) ورواه أبو داود فى سننه وقوله تعالى (يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة ، وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط فانه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ليدل خلقه على كمال قدرته فمن ذلك إخراج النبات من الحب والحب من النبات ، والبيض من الدجاج والدجاج من البيض ، والإنسان من النطفة والنطفة من الإنسان ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وقوله تعالى (ويحيى الأرض بعد موتها) كقوله تعالى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون — إلى قوله — وفجرنا فيها من العيون) وقال تعالى (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت

(١) فى النسخة المكية : ضعيف

وربتت وأنت من كل زوج بهيج — إلى قوله — وأن الله يبعث من فى القبور) وقال تعالى (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا — إلى قوله — لعلكم تذكرون) ولهذا قال ههنا (وكذلك تخرجون)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

يقول تعالى (ومن آياته) الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) فأصلكم من تراب ثم من ماء مهين ثم تصور فكان علقة ثم مضغة ثم صار عظاما شكله على شكل الإنسان ثم كسا الله تلك العظام لحما ، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير ، ثم خرج من بطن أمه صغيرا ضعيف القوى والحركة ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبنى المدائن والحصون ويسافر فى أقطار الأقاليم ويركب متن البحور ويدور أقطار الأرض ويكتسب ويجمع الأموال وله فكرة وغور ودهاء ومكر ورأى وعلم واتساع فى أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه ، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم فى فنون المعايش والمكاسب وفاوت بينهم فى العلوم والفكر ، والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ، ولهذا قال تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) . وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد وغندر قالا حدثنا عوف عن قسامة بن زهير عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك » ورواه أبو داود والترمذى من طرق عن عوف الأعرابى به وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح . وقوله تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا) أى خلق لكم من جنسكم إناثا تكون لكم أزواجا (لتسكنوا إليها) كما قال تعالى (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) يعنى بذلك حواء خلقها الله من آدم من ضلعه الاقصر الأيسر . ولو أنه تعالى جعل بنى آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم إما من جان أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمته ببنى آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم وجعل بينهم وبينهن مودة وهى المحبة ورحمة وهى الرأفة فان الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد أو محتاجة إليه فى الانفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

يقول تعالى (ومن آياته) الدالة على قدرته العظيمة (خلق السموات والأرض) أى خلق السموات فى ارتفاعها واتساعها وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات ، وخلق الأرض فى انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية وبحار وقفار وحيوان وأشجار . وقوله تعالى (واختلاف ألسنتكم) يعنى اللغات فهؤلاء بلغة العرب وهؤلاء تترطم لغة أخرى وهؤلاء كرج وهؤلاء روم وهؤلاء فرنج وهؤلاء بربر وهؤلاء تكرور وهؤلاء حبشة وهؤلاء هنود وهؤلاء عجم وهؤلاء صقالبة وهؤلاء خزر وهؤلاء أرمن وهؤلاء أكراد إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى من اختلاف لغات بنى آدم واختلاف ألوانهم وهى حلاهم فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان وليس يشبه واحد منهم الآخر بل لابد أن

يفارقة بشيء من السمت أو الهيئة أو الكلام ظاهرا كان أو خفيا يظهر عند التأمل كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لاتشبه أخرى ، ولو توافق جماعة فى صفة من جمال أو قبح لابد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر (إن فى ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله) أى ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم فى الليل ، والنهار فيه تحصل الراحة وسكون الحركة وذهاب الكلال والتعب وجعل لكم الانتشار والسعى فى الأسباب والأسفار فى النهار وهذا ضد النوم (إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) أى يعون ، قال الطبرانى حدثنا حجاج بن عمران السدوسى حدثنا عمرو بن الحصين العقيلى حدثنا محمد بن عبد الله بن علاثة حدثنا ثور بن يزيد عن خالد بن معدان سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال: أصابنى أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال « قل اللهم غارت النجوم وهدأت العيون وأنت حى قيوم يا حى يا قيوم أنم عينى وأهدىء ليلى » فقلتها فذهب عنى .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾

يقول تعالى (ومن آياته) الدالة على عظمته أنه (يريكم البرق خوفا وطمعا) أى تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة وصواعق متلفة وتارة ترجون وميضه وما يأتى بعده من المطر المحتاج إليه ، ولهذا قال تعالى (وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها) أى بعد ما كانت هامدة لانبات فيها ولا شيء ، فلما جاءها الماء (اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) وفى ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة ولهذا قال (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) ثم قال تعالى (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) كقوله تعالى (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه) وقوله (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا اجتهد فى اليمين قال . والذى تقوم السماء والأرض بأمره أى هى قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إيا هم ولهذا قال تعالى (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) أى من الأرض كما قال تعالى (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) وقال تعالى (فإنما هى زجرة واحدة * فإذاهم بالساهرة) وقال تعالى (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدنيا محضرون)

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

يقول تعالى (وله من فى السموات والأرض) أى ملكه وعبيده (كل له قانتون) أى خاضعون خاشعون طوعا وكرها . وفى حديث دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد مرفوعا « كل حرف فى القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » وقوله (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى أيسر عليه ، وقال مجاهد الإعادة أهون عليه من البداءة والبداءة عليه هينة وكذا قال عكرمة وغيره وروى البخارى حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب أخبرنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما

بدأنى وليس أول الخلق بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » انفرد باخراجه البخارى كما انفرد بروايته أيضا من حديث عبدالرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة به وقد رواه الإمام أحمد منفردا به عن حسن بن موسى عن ابن لهيعة حدثنا أبو يونس سليم بن جبير عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه أو مثله . وقال آخرون كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء وقال العوفى عن ابن عباس كل عليه هين وكذا قاله الربيع بن خثيم ومال اليه ابن جرير وذكر عليه شواهد كثيرة قال ويحتمل أن يعود الضمير فى قوله (وهو أهون عليه) إلى الخلق أى وهو أهون على الخلق . وقوله (وله المثل الأعلى فى السموات والأرض) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس كقوله تعالى (ليس كمثله شىء) وقال قتادة مثله أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره ، وقال مثل هذا ابن جرير . وقد أنشد بعض المفسرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف :

إذا سكن الغدير على صفاء ... وجنب أن يحركه النسيم
يرى فيه السماء بلا امتراء ... كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك قلوب أرباب التجلى ... يرى فى صفوها الله العظيم

وهو العزيز الذى لا يغالب ولا يمانع بل قد غلب كل شىء وقهر كل شىء بقدرته وسلطانه الحكيم فى أقواله وأفعاله شرعا وقدرا وعن مالك فى تفسيره المروى عنه عن محمد بن المنكدر فى قوله تعالى (وله المثل الأعلى) قال لا إله إلا الله

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به العابدين معه غيره الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ملك له كما كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . فقال تعالى (ضرب لكم مثلا من أنفسكم) أى تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم (هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء) أى يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكا له فى ماله فهو وهو فيه على السواء (تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) أى تخافون أن يقاسموكم الأموال . قال أبو مجلز إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك وليس له ذاك . كذلك الله لا شريك له . والمعنى أن أحدكم يأنف من ذلك فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه وهذا كقوله تعالى (ويجعلون لله ما يكرهون) أى من البنات حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا وجعلوها بنات الله وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب فهم يأنفون من البنات وجعلوا الملائكة بنات الله فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم فهذا أغلظ الكفر وهكذا فى هذا المقام جعلوا له شركاء من عبيده وخلقه وأحدهم يأبى غاية الاباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك أن يكون عبده شريكه فى ماله يساويه فيه ولو شاء لقاسمه عليه (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا)

قال الطبرانى حدثنا محمود بن الفرج الأصبهانى حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلى حدثنا حماد عن شعيب عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان يلبى أهل الشرك لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . فأنزل الله تعالى (هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) ولما كان التنبيه بمثل هذا المثل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك بطريق الأولى والأحرى . قال تعالى (كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) ثم قال تعالى مبينا أن المشركين إنما عبدوا غيره سفها من أنفسهم وجهلا (بل اتبع الذين ظلموا) أى المشركون (أهواءهم) أى فى عبادتهم الأنداد بغير علم (فمن يهدى من أضل الله) أى فلا أحد يهديهم إذا

كتب الله ضلالهم (وما لهم من ناصرين) أى ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير ولا محيد لهم عنه لأنه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾

يقول تعالى : فسدد وجهك واستمر على الدين الذى شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم الذى هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التى فطر الله الخلق عليها فانه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لاإله غيره كما تقدم عند قوله تعالى (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى) وفى الحديث « إنى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم » وسنذكر فى الأحاديث أن الله تعالى فطر خلقه على الإسلام ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية والنصرانية والمجوسية . وقوله تعالى (لا تبديل لخلق الله) قال بعضهم معناه لاتبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التى فطرهم الله عليها فيكون خبرا بمعنى الطلب كقوله تعالى (ومن دخله كان آمنا) وهو معنى حسن صحيح ، وقال آخرون هو خبر على بابه ومعناه أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم فى الفطرة على الجبلة المستقيمة لايولد أحد إلا على ذلك ولا تفاوت بين الناس فى ذلك . ولهذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعى وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وابن زيد فى قوله (لا تبديل لخلق الله) أى لدين الله ، وقال البخارى قوله (لاتبديل لخلق الله) لدين الله ، خلق الأولين دين الأولين ، الدين والفطرة الإسلام . حدثنا عبدان أخبرنا عبدالله أخبرنا يونس عن الزهرى أخبرنى أبوسلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » ثم يقول (فطرت الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) ورواه مسلم من حديث عبد الله بن وهب عن يونس بن يزيد الأيلى عن الزهرى به ، وأخرجاه أيضا من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ وفى معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة . فمنهم الأسود بن سريع التميمى . قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا يونس عن الحسن عن الأسود ابن سريع قال : أتيت رسول الله ﷺ وغزوت معه فأصبت ظفرا فقاتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « مابال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية ؟ » فقال رجل يارسول الله أماهم أبناء المشركين فقال لا إنما خياركم أبناء المشركين — ثم قال — لا تقتلوا ذرية لا تقتلوا ذرية — وقال — كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها » ورواه النسائى فى كتاب السير عن زياد بن أيوب عن هشيم عن يونس وهو ابن عبيد عن الحسن البصرى به . ومنهم جابر بن عبدالله الأنصارى قال الإمام أحمد حدثنا هاشم ثنا أبوجعفر عن الربيع بن أنس عن الحسن عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فاذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً » ومنهم عبدالله بن عباس الهاشمى . قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبوعوانة حدثنا أبوبشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن أولاد المشركين فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم » أخرجاه فى الصحيحين من حديث أبى بشر جعفر بن إياس اليشكرى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعا بذلك ، وقد قال الإمام أحمد أيضا حدثنا عفان حدثنا حماد يعنى ابن سلمة أنبأنا عمار بن أبى عمار عن ابن عباس قال : أتى على زمان وأنا أقول أولاد المسلمين مع أولاد المسلمين وأولاد المشركين مع المشركين حتى حدثنى فلان

عن فلان أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » قال فلقيت الرجل فأخبرني فأمسكت عن قولي ، ومنهم عياض بن حمار المجاشعي قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا هشام عن قتادة عن مطرف عن عياض بن حمار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم فقال في خطبته « إن ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا : كل ما نحلته عبادي حلال . وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشا فقلت رب إذا يثلغ رأسي فيدعه خبزة قال استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك وأنفق فسننفق عليك وابعث جيشا نبعث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من عصاك — قال — : وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم ورجل عفيف متعفف ذو عيال — قال — وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبع لا يبتغون أهلا ولا مالا ، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه . ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك » وذكر البخيل والكذاب والشنظير الفحاش . انفرد باخراجه مسلم فرواه من طرق عن قتادة به وقوله تعالى (ذلك الدين القيم) أي التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أي فلهذا لا يعرفه أكثر الناس فهم عنه ناكبون كما قال تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقال تعالى (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) الآية . وقوله تعالى (منيبين إليه) قال ابن زيد وابن جرير أي راجعين إليه (واتقوه) أي خافوه وراقبوه (وأقيموا الصلاة) وهي الطاعة العظيمة (ولا تكونوا من المشركين) أي بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة لا يريدون بها سواه ، قال ابن جرير حدثني يحيى بن واضح حدثنا يونس بن إسحاق عن يزيد بن أبي مريم قال مر عمر رضي الله عنه بمعاذ بن جبل فقال عمر ما قوام هذه الأمة ؟ قال معاذ : ثلاث وهن المنجيات الإخلاص وهي الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها والصلاة وهي الملة ، والطاعة وهي العصمة فقال عمر صدقت . حدثني يعقوب أنبأنا ابن علية أنبأنا أيوب عن أبي قلابة أن عمر رضي الله عنه قال لمعاذ ما قوام هذا الأمر ؟ فذكر نحوه وقوله تعالى (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) أي لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أي بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وقرأ بعضهم فارقوا دينهم أي تركوه وراء ظهورهم وهؤلاء كاليهودي والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام كما قال تعالى (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله) الآية فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة . وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء وهذه الأمة أيضا اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه كما رواه الحاكم في مستدركه أنه سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم فقال « من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي »

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ * وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم فى حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم فى حالة الاختيار يشركون بالله ويعبدون معه غيره . وقوله تعالى (ليكفروا بما آتيناهم) هى لام العاقبة عند بعضهم ولام التعليل عند آخرين ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك ثم توعدهم بقوله (فسوف تعلمون) قال بعضهم والله لو توعدنى حارس درب لخفت منه فكيف والمتوعد ههنا هو الذى يقول للشىء كن فيكون ثم قال تعالى منكراً على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان (أم أنزلنا عليهم سلطانا) أى حجة (فهو يتكلم) أى ينطق (بما كانوا به يشركون) وهذا استفهام إنكار أى لم يكن لهم شىء من ذلك ، ثم قال تعالى (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئه بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون) هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووفقه فان الإنسان إذا أصابته نعمة بطر . وقال (ذهب السيئات عنى انه لفرح فخور) أى يفرح فى نفسه ويفخرُ على غيره وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية . قال الله تعالى (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) أى صبروا فى الضراء وعملوا الصالحات فى الرخاء كما ثبت فى الصحيح « عجباً للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » وقوله تعالى (أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله فيوسع على قوم ويضيق على آخرين (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون)

﴿ فَئَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً بإعطاء (ذى القربى حقه) أى من البر والصلة (والمسكين) وهو الذى لا شىء له ينفق عليه أوله شىء لا يقوم بكفايته (وابن السبيل) وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه فى سفره (ذلك خير للذين يريدون وجه الله) أى النظر إليه يوم القيامة وهو الغاية القصوى (وأولئك هم المفلحون) أى فى الدنيا والآخرة . ثم قال تعالى (وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله) أى من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم فهذا لا ثواب له عند الله ، بهذا فسره ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب والشعبى ، وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه إلا أنه قد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ، قاله الضحاك واستدل بقوله تعالى (ولا تمنن تستكثر) أى لا تعط العطاء تريد أكثر منه ؛ وقال ابن عباس : الربا رباءان ، فربا لا يصح : يعنى ربا البيع ؛ وربا لا بأس به وهو هدية الرجل يريد فضلها ، أضعافها ثم تلا هذه الآية (وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله) وإنما الثواب عند الله فى الزكاة ولهذا قال تعالى (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) أى الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء كما جاء فى الصحيح « وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب الا أخذها الرحمن بيمينه فيربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله حتى تصير التمرة أعظم من أحد » وقوله عزوجل (الله الذى خلقكم ثم رزقكم) أى هو الخالق الرازق يخرج الإنسان من بطن أمه عريانا لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوى ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك والرياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب كما قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سلام بن شرحبيل عن حبة وسواء ابنى خالد قالا دخلنا على النبى ﷺ وهو يصلح شيئا فأعناه فقال « لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رءوسكما فإن الإنسان

تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ثم يرزقه الله عز وجل » وقوله تعالى (ثم يميتكم) أى بعد هذه الحياة (ثم يحييكم) أى يوم القيامة ، وقوله تعالى (هل من شركائكم) أى الذين تعبدونهم من دون الله (من يفعل من ذلكم من شىء ؟) أى لا يقدر أحد منهم على فعل شىء من ذلك بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق والاحياء والاماتة ثم يبعث الخلائق يوم القيامة ولهذا قال بعد هذا كله (سبحانه وتعالى عما يشركون) أى تعالى وتقدس وتنزه وتعاظم وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساو أو ولد أو والد بل هو الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾

قال ابن عباس وعكرمة والضحاك والسدى وغيرهم المراد بالبر ههنا الفيافى وبالبحر الأمصار والقرى وفى رواية عن ابن عباس وعكرمة : البحر الأمصار والقرى ما كان منها على جانب نهر ، وقال آخرون بل المراد بالبر هو البر المعروف وبالبحر هو البحر المعروف . وقال زيد بن رفيع (ظهر الفساد) يعنى انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط وعن البحر يعنى دوابه . رواه ابن أبى حاتم وقال حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد بن المقرى عن سفيان عن حميد بن قيس الأعرج عن مجاهد (ظهر الفساد فى البر والبحر) قال فساد البر قتل ابن آدم وفساد البحر أخذ السفينة غصبا ، وقال عطاء الخراسانى المراد بالبر ما فيه من المدائن والقرى وبالبحر جزائره . والقول الأول أظهر وعليه الأكثرون ، ويؤيده ما قاله محمد بن إسحاق فى السيرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح ملك أيلة وكتب إليه ببحره يعنى ببلده ومعنى قوله تعالى (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس) أى بان النقص فى الزروع والثمار بسبب المعاصى . وقال أبو العالية . من عصى الله فى الأرض فقد أفسد فى الأرض لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود « لحد يقام فى الأرض أحب إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحا » والسبب فى هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطى المحرمات وإذا تركت المعاصى كان سببا فى حصول البركات من السماء والأرض . ولهذا إذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام فى آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة فى ذلك الوقت من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية وهو تركها فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف فإذا أهلك الله فى زمانة الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج قيل للأرض أخرجى بركتك فيأكل من الرمانة الفئام من الناس ويستظلون بقحفها ، ويكفى لبن اللقحة الجماعة من الناس وماذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة محمد ﷺ فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير . ولهذا ثبت فى الصحيحين أن الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب وقال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا محمد والحسين قالا حدثنا عوف عن أبى مخنم قال وجد رجل فى زمان زياد أو ابن زياد صرة فيها حب يعنى من بر أمثال النوى مكتوب فيها هذا نبت فى زمان كان يعمل فيه بالعدل ، وروى مالك عن زيد ابن أسلم أن المراد بالفساد ههنا الشرك وفيه نظر وقوله تعالى (ليذيقهم بعض الذى عملوا) الآية أى يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختبارا منه لهم ومجازاة على صنيعهم (لعلهم يرجعون) أى عن المعاصى كما قال تعالى (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) ثم قال تعالى (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) أى من قبلكم (كان أكثرهم مشركين) أى فانظروا ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ * مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ

كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة فى طاعته والمبادرة إلى الخيرات (فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله) أى يوم القيامة إذا أراد كونه فلا راد له (يومئذ يصدعون) أى يتفرقون ففريق فى الجنة وفريق فى السعير ولهذا قال تعالى (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون * ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) أى يجازيهم مجازاة الفضل ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله (إنه لا يحب الكافرين) ومع هذا هو العادل فيهم الذى لا يجور

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يذكر تعالى نعمه على خلقه فى إرساله الرياح مبشرات بين يدى رحمته بمجىء الغيث عقبها ولهذا قال تعالى (وليذيقكم من رحمته) أى المطر الذى ينزله فيحيي به العباد والبلاد (ولتجرى الفلك بأمره) أى فى البحر وإنما سيرها بالريح (ولتبتغوا من فضله) أى فى التجارات والمعايش والسير من إقليم إلى إقليم وقطر إلى قطر (ولعلكم تشكرون) أى تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة التى لا تعد ولا تحصى . ثم قال تعالى (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا) هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس فقد كذبت الرسل المتقدمون مع ما جاءوا أممهم به من الدلائل الواضحات . ولكن انتقم الله ممن كذبهم وخالفهم وأنجى المؤمنين بهم (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) أى هو حق أوجبه على نفسه الكريمة تكرما وتفضلا كقوله تعالى (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وروى ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن نفيل حدثنا موسى بن أعين عن ليث عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » ثم تلا هذه الآية (وكان حقا علينا نصر المؤمنين)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فَٱنظُرْ إِلَىٰ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾

يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذى ينزل منه الماء فقال تعالى (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا) إما من البحر كما ذكره غير واحد أو مما يشاء الله عز وجل (فيبسطه فى السماء كيف يشاء) أى يمده فيكثره وينميه ويجعل من القليل كثيرا ينشىء سحابة ترى فى رأى العين مثل الترس ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق ، وتارة يأتى السحاب من نحو

البحر ثقالا مملوءة كما قال تعالى (وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمه حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت — إلى قوله — كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) وكذلك قال ههنا (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا) قال مجاهد وأبو عمرو بن العلاء ومطر الوراق وقتادة يعنى قطعا . وقال غيره مترا كما كما قاله الضحاك وقال غيره : أسود من كثرة الماء تراه مدلهما ثقيلا قريبا من الأرض وقوله تعالى (فترى الودق يخرج من خلاله) أى فترى المطر وهو القطر يخرج من بين ذلك السحاب (فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذاهم يستبشرون) أى لحاجتهم اليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله اليهم . وقوله تعالى (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين) معنى الكلام أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قانطين أزلين من نزول المطر اليهم قبل ذلك فلما جاءهم جاءهم على فاقة فوقع منهم موقعا عظيما ، وقد اختلف النحاة فى قوله (من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين) فقال ابن جرير هو تأكيد ، وحكاه عن بعض أهل العربية . وقال آخرون من قبل أن ينزل عليهم المطر من قبله أى الانزال لمبلسين ، ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس ويكون معنى الكلام أنهم كانوا محتاجين اليه قبل نزوله ومن قبله أيضا قد فات عندهم نزوله وقتا بعد وقت فترقبوه فى إبانه فتأخر ثم مضت مدة فترقبوه فتأخر ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط فبعد ما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ولهذا قال تعالى (فانظر إلى آثار رحمة الله) يعنى المطر (كيف يحيى الأرض بعد موتها) ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها فقال تعالى (إن ذلك لمحيى الموتى) أى إن الذى فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات (إنه على كل شىء قدير) ثم قال تعالى (ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون) يقول تعالى (ولئن أرسلنا ريحاً) يابسة على الزرع الذى زرعوه ونبت وشب واستوى على سوقه فرأوه مصفرا أى قد اصفر وشرع فى الفساد لظلوا من بعده أى بعد هذا الحال يكفرون أى يجحدون ماتقدم إليهم من النعم كقوله تعالى (أفرأيتم ماتحرثون — إلى قوله — بل نحن محرومون) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع حدثنا هشيم عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن عبيد الله بن عمرو قال : الرياح ثمانية أربعة منها رحمة وأربعة منها عذاب ، فأما الرحمة فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات ، وأما العذاب فالعقيم والصرصر وهما فى البر والعاصف والقاصف وهما فى البحر فاذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدى رحمته ولاقحا للسحاب تلقحه بحمله الماء كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل ، وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيما وأودعه عذابا أليما وجعله نقمة على من يشاء من عباده فيجعله صرصراً وعاتيا ومفسدا لما يمر عليه والرياح مختلفة فى مهابها صبا ، ودبور وجنوب وشمال ، وفى منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف فريح لينة رطبة تغذى النبات وأبدان الحيوان وأخرى تجففه ، وأخرى تهلكه وتعطبه ، وأخرى تسيره وتصلبه ، وأخرى توهنه وتضعفه وقال ابن أبى حاتم حدثنا ابن عبيدالله بن أخى ابن وهب حدثنا عمى حدثنا عبد الله بن عياش حدثنى عبد الله بن سليمان عن دراج عن عيسى بن هلال الصدفى عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « الريح مسخرة فى الثانية — يعنى الأرض الثانية — فلما أراد الله أن يهلك عادا أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك عاداً فقال يارب أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور ، قال له الجبار تبارك وتعالى ، لا إذاً تكفأ الأرض ومن عليها ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم فهى التى قال الله فى كتابه (ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) » هذا حديث غريب ورفعه منكر والأظهر أنه من كلام عبد الله بن عمرو رضى الله عنه

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى كما أنك ليس فى قدرتك أن تسمع الأموات فى أجداثها ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون وهم مع ذلك مدبرون عنك كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق وردهم عن ضلالتهم بل ذلك إلى الله فانه تعالى بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ويهدى من يشاء ويضل من يشاء وليس ذلك لأحد سواه ، ولهذا قال تعالى (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) أى خاضعون مستجيبون مطيعون فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه وهذا حال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين كما قال تعالى (إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون) وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بهذه الآية (إنك لا تسمع الموتى) على توهيم عبد الله ابن عمر فى روايته مخاطبة النبى ﷺ القتلى الذين ألقوا فى قليب بدر بعد ثلاثة أيام ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر يارسول الله ما تخاطب من قوم قد جيفوا ؟ فقال « والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون » وتأولته عائشة على أنه قال « إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق » وقال قتادة أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تقريعاً وتوبيخاً ونقمة ، والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة ، من أشهر ذلك ماروواه ابن عبد البر مصححاً له عن ابن عباس مرفوعاً « مامن أحد يمر بقبر أخيه المسلم كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام » وثبت[1] عنه ﷺ لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلم السلام عليكم دار قوم مؤمنين وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد ، والسلف مجمعون على هذا وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحى له ويستبشر فروى ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إذا مر الرجل بقبر يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام ، وروى ابن أبى الدنيا باسناده عن رجل من آل عاصم الجحدرى قال رأيت عاصما الجحدرى فى منامى بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مت ؟ قال بلى ، قلت فأين أنت ؟ قال أنا والله فى روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزنى فنتلقى أخباركم . قال قلت أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال هيهات قد بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح ، قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال نعم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس قال قلت فكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال لفضل يوم الجمعة وعظمته قال وحدثنا محمد بن الحسين ثنا بكر بن محمد ثنا حسن القصاب قال كنت أغدو مع محمد بن واسع فى كل غداة سبت حتى نأتى أهل الجبان فنقف على القبور فنسلم عليه وندعو لهم ثم ننصرف فقلت ذات يوم لو صيرت هذا اليوم يوم الاثنين ؟ قال بلغنى أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبلها ويوما بعدها . قال ثنا محمد ثنا عبد العزيز بن أبان قال ثنا سفيان الثورى قال بلغنى عن الضحاك أنه قال : من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته ، فقيل له وكيف ذلك ؟ قال لكان يوم الجمعة . حدثنا خالد بن خداش ثنا جعفر بن سليمان عن أبى التياح يقول كان مطرف يغدو فاذا كان يوم الجمعة أدلج . قال وسمعت أبا التياح يقول بلغنا أنه كان ينزل بغوطة فأقبل ليلة حتى إذا كان عند المقابر يقوم وهو على فرسه فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالساً على قبره فقالوا هذا مطرف يأتى الجمعة ويصلون عندكم يوم الجمعة ؟ قالوا نعم ونعلم مايقول فيه الطير . قلت ومايقولون ؟ قال يقولون سلام عليكم ؟ حدثنى محمد ابن الحسن ثنا يحيى بن أبى بكر ثنا الفضل ابن الموفق ابن خال سفيان بن عيينة قال لما مات أبى جزعت عليه جزعا شديدا فكنت آتى قبره فى كل يوم ثم قصرت عن ذلك ماشاء الله ثم أنى أتيته يوما فبينا أنا جالس عند القبر غلبتنى عيناى فنمت فرأيت كأن قبر أبى قد انفرج وكأنه قاعد فى قبره متوشح أكفانه عليه سحنة الموتى قال فكأنى بكيت لما رأيته قال يابنى ما أبطأبك عنى قلت وإنك لتعلم بمجيئى ؟ قال ماجئت مرة إلا علمتها وقد كنت تأتينى فأسر بك ويسر من حولى بدعائك قال فكنت آتيه بعد ذلك كثيراً ، حدثنى محمد حدثنا يحيى بن بسطام ثنا عثمان بن سويد الطفاوى قال وكانت

(١) من هنا إلى الآية التالية زيادة من النسخة المكية وهو غير موجود فى النسخة الأميرية .

أمه من العابدات وكان يقال لها راهبة قال : لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت يا ذخرى ودخيرتى من عليه اعتمادى فى حياتى وبعد موتى لاتخذلنى عندالموت ولا توحشنى . قال فمانت فكنت آتيها فى كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور فرأيتها ذات يوم فى منامى فقلت لها يا أمى كيف أنت ؟ قالت أى بنى إن للموت لكربة شديدة وإنى بحمد الله لفى برزخ محمود يفرش فيه الريحان وتوسدالسندس والاستبرق إلى يوم النشور فقلت لها ألك حاجة ؟ قالت نعم ، قلت وما هى ؟ قالت لا تدع ما كنت تصنع من زياراتنا والدعاء لنا فانى لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك يقال لى يا راهبة هذا ابنك قدأقبل فأسر ويسر بذلك من حولى من الأموات ، حدثنى محمد حدثنا محمد بن عبدالعزيز ابن سليمان حدثنا بشر بن منصور قال لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان فيشهد الصلاة على الجنائز فإذا أمسى وقف على المقابر فقال آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم ، وتجاوز عن مسيئكم ، وقبل حسناتكم لا يزيدعلى هؤلاء الكلمات قال فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، قال فبينا أنانائم إذا بخلق قد جاءونى فقلت ما أنتم وما حاجتكم ؟ قالوانحن أهل المقابر ، قلت ما حاجتكم ؟ قالوا إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك ، قلت وماهى ؟ قالوا الدعوات التى كنت تدعوبها ، قال قلت فإنى أعود لذلك ، قال فما تركتها بعد ، وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحى من أقاربه وإخوانه . قال عبدالله بن المبارك حدثنى ثور بن يزيد عن إبراهيم عن أيوب قال تعرض أعمال الأحياء على الموتى فإذا رأوا حسنا فرحوا واستبشروا ، وإن رأوا سوءاً قالوا اللهم راجع به

وذكر ابن أبى الدنيا عن أحمد بن أبى الحوارى قال ثنا محمد أخى قال دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال عظنى ، قال بم أعظك أصلحك الله ؟ بلغنى أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى فانظر مايعرض على رسول الله ﷺ من عملك فبكى إبراهيم حتى أخضل لحيته . قال ابن أبى الدنيا وحدثنى محمد بن الحسين ثنى خالد بن عمرو الأموى ثنا صدقة بن سليمان الجعفرى قال : كانت لى شرة مجة فمات أبى فتبت وندمت على مافرطت ثم زللت أيما زلة فرأيت أبى فى المنام فقال أى بنى ما كان أشد فرحى بك وأعمالك تعرض علينا فنشهها بأعمال الصالحين فلما كانت هذه المرة استحييت لذلك حياء شديداً فلاتخزنى فيمن حولى من الأموات قال فكنت أسمعه بعد ذلك يقول فى دعائه فى السحر وكان جاراً لى بالكوفة أسألك إيابة لا رجعة فيها ولا حور يا مصلح الصالحين ويا هادى المضلين ويا أرحم الراحمين . وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة ، وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول : اللهم إنى أعود بك من عمل أخزى به عند عبدالله بن رواحة ، كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبدالله . وقدشرع السلام على الموتى ، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلم محال وقد علم النبى ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية ، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد وإن لم يسمع المسلم الرد والله أعلم

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾

ينبه تعالى على تنقل الإنسان فى أطوار الخلق حالا بعد حال فأصله من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم يصير عظاما ثم تكسى العظام لحما وينفخ فيه الروح ثم يخرج من بطن أمه ضعيفا نحيفا واهن القوى ثم يشب قليلا قليلا حتى يكون صغيراً ثم حدثا ثم مراهقا ثم شابا وهو القوة بعد الضعف ثم يشرع فى النقص فيكتهل ثم يشيخ ثم يهرم وهو الضعف بعد القوة فتضعف الهمة والحركة والبطش وتشيب اللمة وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة ، ولهذا قال تعالى (ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق مايشاء) أى يفعل مايشاء ويتصرف فى عبيده بما يريد (وهو العليم القدير) قال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن فضيل ويزيد حدثنا فضيل بن مرزوق عن عطية العوفى قال : قرأت على ابن عمر (الله

الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا) فقال (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا) ثم قال قرأت على رسول الله ﷺ كما قرأت على فأخذ على كما أخذت عليك ، ورواه أبو داود والترمذى وحسنه من حديث فضيل به ورواه أبو داود من حديث عبد الله بن جابر عن عطية عن أبى سعيد بنحوه

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

يخبر تعالى عن جهل الكفار فى الدنيا والآخرة ففى الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ،وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضا فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة فى الدنيا ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم . قال الله تعالى (كذلك كانوا يؤفكون * وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث) أى فيرد عليهم المؤمنون العلماء فى الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الله فى الدنيا فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة (لقد لبثتم فى كتاب الله) أى فى كتاب الأعمال (إلى يوم البعث) أى من يوم خلقتم إلى أن بعثتم (ولكنكم كنتم لا تعلمون) قال الله تعالى (فيومئذ) أى يوم القيامة (لاينفع الذين ظلموا معذرتهم)أى اعتذارهم عما فعلوا (ولا هم يستعتبون)أى ولا هم يرجعون إلى الدنيا كما قال تعالى (وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ * كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾

يقول تعالى (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى قد بينا لهم الحق ووضحناه لهم وضربنا لهم فيه الأمثال ليستبينوا الحق ويتبعوه (ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون) أى لو رأوا أى آية كانت، سواء كانت باقتراحهم أوغيره لا يؤمنون بها ويعتقدون أنها سحر وباطل كما قالوا فى انشقاق القمر ونحوه كما قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون *ولوجاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) ولهذا قال ههنا (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون *فاصبر إن وعد الله حق) أى اصبر على مخالفتهم وعنادهم فان الله تعالى منجز لك ماوعدك من نصره إياك عليهم وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك فى الدنيا والآخرة (ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) أى بل اثبت على ما بعثك الله به فانه الحق الذى لا مرية فيه ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع بل الحق كله منحصر فيه .قال سعيد عن قتادة نادى رجل من الخوارج عليا رضى الله عنه وهو فى صلاة الغداة فقال : (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) فأنصت له على حتى فهم ما قال فأجابه وهو فى الصلاة (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لايوقنون) رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، وقد رواه ابن جرير من وجه آخر فقال حدثنا وكيع حدثنا يحيى بن آدم عن شريك عن عثمان عن أبى زرعة عن على بن ربيعة قال: نادى رجل من الخوارج عليا رضى الله عنه وهو فى صلاة الفجر فقال (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) فأجابه على رضى الله عنه وهو فى الصلاة (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك

الذين لايوقنون): ﴿طريق أخرى﴾ قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن الجعد أخبرنا شريك عن عمران بن ظبيان عن أبي يحيى قال صلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه صلاة الفجر فناداه رجل من الخوارج (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) فأجابه علي رضى الله عنه وهو في الصلاة (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون)

﴿ ما روى في فضل هذه السورة الشريفة واستحباب قراءتها في الفجر ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عبد الملك بن عمير سمعت شبيب بن روح يحدث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الصبح فقرأ فيها الروم فأوهم فلما انصرف قال «إنه يلبس علينا القرآن فان أقواما منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء فمن شهد منكم الصلاة معنا فليحسن الوضوء » وهذا إسناد حسن ومتن حسن ، وفيه سر عجيب . ونبأ غريب ، وهو أنه ﷺ تأثر بنقصان وضوء من ائتم به فدل ذلك على أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام. آخر تفسير سورة الروم ولله الحمد والمنة

﴿ تفسير سورة لقمان وهي مكية ﴾

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

تقدم في أول سورة البقرة عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة وهو أنه سبحانه وتعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، ووصلوا أرحامهم وقراباتهم وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك لم يراءوا به ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكورا فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى (أولئك على هدى من ربهم) أي على بصيرة وبينة ومنهج واضح جلي (وأولئك هم المفلحون) أي في الدنيا والآخرة

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه كما قال تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) الآية عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب كما قال ابن مسعود في قوله تعالى (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله) قال هو والله الغناء روى ابن جرير حدثني يونس بن عبد الأعلى قال أخبرنا ابن وهب أخبرني يزيد بن يونس عن أبي صخر عن ابن معاوية البجلي عن سعيد بن جبير عن أبي الصهباء البكري أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يسأل عن هذه الآية (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله) فقال عبدالله بن مسعود: الغناء والله الذي لا إله إلا هو ، يرددها ثلاث مرات حدثنا عمرو بن علي حدثنا صفوان بن عيسى أخبرنا حميد الخراط عن عمار عن سعيد بن جبير عن أبي